

أرنب في القمر

كامل كيلاني



أَرْزَبُ فِي الْقَمَرِ

تأليف
كامل كيلاني



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: حنان بغدادي

الترقيم الدولي: ٦ ٢٧١ ٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٧.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

أَرْزَبُ فِي الْقَمَرِ

(١) سَمَرُ الْأَطْفَالِ

جَلَسَ الْأَطْفَالُ يَسْمُرُونَ — فِي الْهَوَاءِ الطَّلَقِ — وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ قَمَرَاءً، ثُمَّ حَانَتْ مِنْهُمْ التَّفَاتَةُ إِلَى الْقَمَرِ السَّاطِعِ، فَمَاذَا رَأَوْا عَلَى صَفْحَتِهِ؟

رَأَوْا — عَلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ — فَجَوَاتٍ وَخُطُوطًا خَيَّلَتْ إِلَيْهِمْ أَنَّهَا إِنْسَانٌ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ حُرْمَةً حَطْبٍ، وَإِلَى جَانِبِهِ كَلْبٌ.

ذَلِكَ مَا رَأَهُ أَطْفَالُنَا، أَوْ — عَلَى الْأَصَحِّ — مَا خَيَّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَرُونَهُ مُرْتَسِمًا عَلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ الْفَضِيَّةِ اللَّامِعَةِ.

أَمَّا أَطْفَالُ الْهِنْدِ، فَلَا يَرُونَ عَلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ صُورَةَ كَلْبٍ، بَلْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَرُونَ صُورَةَ حَيَوَانٍ آخَرَ، هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَرْزَبِ، فَإِذَا سَأَلُوا أُمَّهَاتِهِمْ عَنْ ذَلِكَ الْأَرْزَبِ الَّذِي يَرُونَ صُورَتَهُ مُرْتَسِمَةً عَلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ، وَكَيْفَ ارْتَقَى إِلَيْهِ، وَاتَّخَذَهُ مَسْكَنًا لَهُ — قَصَّتْ عَلَيْهِمْ أُمَّهَاتُهُمُ الْقِصَّةَ التَّالِيَةَ، الَّتِي اخْتَرْتُهَا لَكُمْ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ أَيُّهَا الْأَطْفَالُ الْأَعْرَاءُ:

(٢) الْأَصْدِقَاءُ الْأَرْبَعَةُ

مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، كَانَتْ ضُرُوبُ الْحَيَوَانِ قَادِرَةً عَلَى الْكَلَامِ، كَمَا نَتَكَلَّمُ نَحْنُ — بَنِي الْإِنْسَانِ — وَكَانَ وَجْهُ الْقَمَرِ اللَّامِعِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الْغَائِبِ، أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْوَرَقَةِ الْبَيْضَاءِ الْمُصْقُولَةِ، أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ نَقِيًّا لَا شَيْءَ فِيهِ.



وَكَانَ يَعْيشُ — فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ — أَرْبَعَةُ حَيَوَانَاتٍ عَاقِلَةٌ ذَكِيَّةٌ، تَخَذَتْ بُيُوتَهَا فِي إِحْدَى
 الْغَابَاتِ الْهِنْدِيَّةِ، وَعَاشَتْ مُؤْتَلِفَةً وَادِعَةً.
 وَكَانَتْ هَذِهِ الرُّفْقَةُ الْهَانِئَةُ مُؤَلَّفَةً مِنْ أَرْزَبٍ يُكْنَى: «أَبَا نَبْهَانَ»، وَابْنِ آوَى يُكْنَى: «أَبَا
 أَيُّوبَ» وَكَلْبٍ يُدْعَى: «قَضَاعَةٌ»، وَقِرْدٍ اسْمُهُ: «الرَّبِّيَّاحُ».
 وَكَانُوا — لِطُولِ أَلْفَتِهِمْ — مُتَحَابِّينَ لَا يُطِيقُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَفَارِقَ أَصْحَابَهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً،
 وَكَانُوا يَتَفَرَّقُونَ — فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ — لِيَسْعَوْا إِلَى أَرْزَاقِهِمْ، وَيَضْرِبُوا فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ؛
 حَتَّى إِذَا أَمْسَوْا، تَقَابَلُوا فِي مَكَانٍ بَعَيْنِهِ، وَجَلَسُوا يَسْمُرُونَ أَطْيَبَ الْأَسْمَارِ، وَيَتَشَاوَرُونَ فِي
 كُلِّ مَا يَهْمُونُ بِفِعْلِهِ مِنَ الْأُمُورِ.

(٣) أَبُو نَبْهَانَ

وَكَانَ «أَبُو نَبْهَانَ» — ذَلِكَ الْأَرْنَبُ الرَّشِيدُ — أَوْفَرَ أَصْحَابِهِ عَقْلاً، وَأَكْرَمَهُمْ نَفْسًا، وَأَخْبَرَهُمْ بِالْحَيَاةِ، وَأَعْظَمَهُمْ مَعْرِفَةً بِفُنُونِ الْقِصَصِ وَالْأَسَاطِيرِ، فَلَا عَجَبَ إِذَا أَنْصَتَ أَصْحَابُهُ إِلَى أَسْمَارِهِ الْمُعْجِبَةِ، وَأَحَادِيثِهِ الشَّائِقَةِ، وَطُرْفِهِ الْمُسْتَمْلَحَةِ؛ الَّتِي كَانَ يَقْصُصُهَا عَلَيْهِمْ، لِيَحْبَبَ إِلَيْهِمُ الْفَضِيلَةَ، وَيُغْرِیَهُمْ بِاتِّبَاعِ الْحِكْمَةِ السَّامِيَةِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْأَخْذِ بِالشَّرَائِعِ الْقَوِيْمَةِ الَّتِي يَدِينُ بِهَا أَفَاضِلُ النَّاسِ.

وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو نَبْهَانَ» يَكْفُ عَنْ تَهْذِيبِ أَصْحَابِهِ وَتَثْقِيفِهِمْ بِتِلْكَ الْقِصَصِ وَالْأَحَادِيثِ الطَّرِيفَةِ الَّتِي تُرْشِدُ أَصْحَابَهُ إِلَى أَقْوَمِ طَرِيقٍ، وَأَهْدَى سَبِيلٍ.

(٤) عَهْدٌ وَمِيثَاقٌ

وَذَا مَسَاءٍ، نَظَرَ «أَبُو نَبْهَانَ» إِلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ السَّاطِعَةِ، وَأَطَالَ تَأَمُّلَهُ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ:

«إِنَّ الْقَمَرَ — كَمَا أَرَى — فِي اكْتِمَالِهِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ يَوْمَ غَدٍ هُوَ مُنْتَصَفُ الشَّهْرِ، وَهُوَ — كَمَا تَعْلَمُونَ — يَوْمٌ أَغْرَ كَرِيمٌ، وَيَجْدُرُ بِنَا — أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ — أَنْ نَنْتَوِيَ الصِّيَامَ غَدًا، مِنْ شُرُوقِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا، ثُمَّ نَأْخُذَ عَلَى أَنْفُسِنَا عَهْدًا وَمِيثَاقًا أَلَّا نَحْرِمَ فَقِيرًا أَوْ نَاسِكًا مَا يَطْلُبُ مِنَّا مِنَ الصَّدَقَاتِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ الْكَرِيمِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُعَاهِدِي عَلَى ذَلِكَ؟ وَهَلْ أَنْتُمْ مُقْسِمُونَ عَلَى الْبِرِّ بِهَذَا الْعَهْدِ؟ لَعَلَّنَا نُصْبِحَ مِنَ الْأَتْقِيَاءِ الْبَرَّةِ الصَّالِحِينَ، وَنَسْمُوَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْأَخْيَارِ مِنْ أَنْبَاءِ آدَمَ الْأَكْرَمِينَ».

فَعَاهَدَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَحَلَفُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِمْ، ثُمَّ افْتَرَقُوا، وَعَادَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَأْوَاهُ، وَنَامَ لَيْلَهُ وَادِعًا مَسْرُورًا.

(٥) عَهْدٌ قُضَاعَةٌ

وَلَمَّا أَصْبَحُوا، نَهَضَ «قُضَاعَةٌ» مِنْ نَوْمِهِ بَاكِراً، وَقَالَ — فِي نَفْسِهِ —: «إِنِّي — إِذَا بَرَزْتُ بِقَسَمِي — وَصُمْتُ نَهَارِي كُلَّهُ؛ فَلَنْ يَجِيءَ الْمَسَاءُ حَتَّى أُشْرِفَ عَلَى الْهَلَاكِ جَوْعًا. وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ أُعِدَّ طَعَامًا فَاجِزًا مُنْذُ الْآنَ؛ لِأَكُلَهُ مَتَى أَمْسَيْتُ».

ثُمَّ خَرَجَ قُضَاعَةُ صَوْبَ النَّهْرِ، وَلَمْ يَكْدُ يَسِيرُ خُطَوَاتٍ يَسِيرَةً، حَتَّى رَأَى أَمَامَهُ فُرْصَةً سَاحِحَةً لِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِهِ.

وَكَانَ أَحَدُ الصَّيَّادِينَ قَدْ اصْطَادَ سَبْعَ سَمَكَاتٍ كَبِيرَةٍ حَمْرَاءَ — قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ قُضَاعَةُ بِزَمَنِ يَسِيرٍ — ثُمَّ سَلَكَهَا الصَّيَّادُ فِي خَيْطٍ دَقِيقٍ، وَدَفَنَهَا فِي الرَّمْلِ، وَعَادَ أَدْرَاجَهُ — صَوْبَ النَّهْرِ — لِيَصْطَادَ غَيْرَهَا، حَتَّى إِذَا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ، عَادَ إِلَى سَمَكَاتِهِ السَّبْعِ، فَأَخَذَهَا وَضَمَّهَا إِلَى صَيْدِهِ الْجَدِيدِ. فَلَمَّا جَاءَ قُضَاعَةُ، فَاحَتَ رَائِحَةُ السَّمَكِ الْمَدْفُونِ فِي الرَّمْلِ. فَقَالَ «قُضَاعَةُ» فِي نَفْسِهِ — ضَاحِكًا —: «هَآ هَآ! لَقَدْ تَهَيَّأَ لِي طَعَامِي، وَظَفَرْتُ بِمَا أَبْغِي مِنَ الزَّادِ، دُونَ أَنْ أَكْبِدَ فِي صَيْدِهِ أَيْ عَنَاءٍ وَلَكِنِّي جَدِيرٌ أَلَّا أَقْتَرِفَ إِثْمًا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ الْكَرِيمِ، وَلَنْ يَصِحَّ لِي صِيَامٌ إِذَا أَبْحَثَ لِنَفْسِي سَرِقَةَ هَذَا السَّمَكِ اللَّذِيزِ، فَمَاذَا أَصْنَعُ؟» وَأَطَالَ «قُضَاعَةُ» تَأَمُّلَهُ، وَأَعْمَلَ ذِكَاةً حَتَّى اهْتَدَى إِلَى وَجْهِهِ مِنْ وَجُوهِ الْحِيلَةِ، يُهَرِّرُ بِهِ سَرِقَةَ السَّمَكِ، وَيَحْدَعُ نَفْسَهُ فِي اقْتِرَافِ هَذَا الْجُرْمِ الشَّنِيعِ، فَمَاذَا فَعَلَ؟ لَقَدْ لَجَأَ إِلَى حِيلَةٍ مُضْحِكَةٍ سَخِيفَةٍ، فَنَادَى بِصَوْتٍ خَافَتْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ نِدَاءَهُ أَحَدٌ: «أَلَيْسَ لِهَذِهِ السَّمَكَاتِ مِنْ صَاحِبٍ؟»

فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ، لِأَنَّ صَوْتَهُ الْخَافِتَ لَمْ يَكْدُ يَبْلُغُ أُنْدِيَهُ، فَكَيْفَ يَسْمَعُهُ غَيْرُهُ؟ وَهَكَذَا اقْتَنَعَ «قُضَاعَةُ» فِي نَفْسِهِ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ السَّخِيفَةِ الَّتِي لَا تُقْنِعُ أَحَدًا غَيْرَهُ، ثُمَّ حَمَلَ السَّمَكَاتِ — مُبْتَهَجًا — إِلَى مَأْوَاهُ، لِيَأْكُلَهَا فِي الْمَسَاءِ، وَرَقَدَ لِيَنَامَ نَهَارَهُ نَوْمًا عَمِيقًا حَتَّى تَنْقُضِيَ سَاعَاتُ الصِّيَامِ — وَهُوَ نَائِمٌ — فَلَا يُعَانِي أَلَمَ الْجُوعِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ أَوْ النَّسَاكِ — فِي طَرِيقِهِ — فَيُضْطَرَّ إِلَى التَّصَدُّقِ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِمَّا سَرَقَهُ مِنَ السَّمَكِ.

(٦) عَهْدُ أَبِي أَيُّوبَ وَعَهْدُ الرَّبَّاحِ

وَمَرَّتْ أَشْبَاهُ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الْخَاطِئَةِ بِخَاطِرِي «أَبِي أَيُّوبَ» وَ«الرَّبَّاحِ» كُلِّهِمَا، حِينَ اسْتَيْقَظَا فِي الصَّبَاحِ، وَذَكَرَا ذَلِكَ الْعَهْدَ الَّذِي أَقْسَمَا عَلَى احْتِرَامِهِ وَالْوَفَاءِ بِهِ.

فَأَمَّا «أَبُو أَيُّوبَ» فَقَدْ بَحَثَ عَنْ طَعَامِهِ سَاعَةً — أَوْ تَزِيدُ — حَتَّى اهْتَدَى إِلَى عِظَاءَةٍ مَطْبُوحَةٍ، وَإِلَى جَانِبِهَا جَرَّةٌ مَمْلُوءَةٌ لَبَنًا خَائِثًا، فِي كُوْحٍ فَلَاحٍ. فَسَرَقَهُمَا وَعَادَ بِهِمَا إِلَى مَأْوَاهُ فَرِحًا مَسْرُورًا، ثُمَّ نَامَ مِلءَ جَفْنَيْهِ كَمَا فَعَلَ صَاحِبُهُ «قُضَاعَةُ».



١٤٦

وَأَمَّا «الرُّبَاحُ» فَلَمْ يَتْعَبْ نَفْسَهُ فِي الْبَحْثِ عَنْ طَعَامِهِ قَطُّ، وَاکْتَفَى بِالذَّهَابِ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ «الْمَنْجُو» فَتَسَلَّقَهَا، ثُمَّ قَصَفَ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِهَا، وَعَادَ بِهِ إِلَى مَأْوَاهُ، وَاسْتَسْلَمَ لِلرُّقَادِ كَمَا فَعَلَ صَاحِبَاهُ، وَأَرَّاحَ بَالَهُ مِنْ لِقَاءِ الْفُقَرَاءِ وَالنَّسَاكِ، وَالتَّصَدَّقِ عَلَى الْبَائِسِينَ وَالْمُعْوِزِينَ.

(٧) عَهْدُ أَبِي نَبْهَانَ

أَمَّا «أَبُو نَبْهَانَ»: ذَلِكَ الْأَرْزَبُ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ، فَقَدْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ مُبَكِّرًا — كَمَا اسْتَيْقَظَ أَصْحَابُهُ — وَلَكِنَّهُ فَعَلَ غَيْرَ مَا فَعَلُوا، وَحَافَظَ عَلَى الْوَفَاءِ بَعْدِهِ الَّذِي أَخَذَ نَفْسَهُ بِهِ.
خَرَجَ «أَبُو نَبْهَانَ» مِنْ مَأْوَاهُ إِلَى الْحُقُولِ، وَظَلَّ يَجُولُ فِيهَا لِيَشْمَ رَائِحَةَ الْحَشَائِشِ النَّدِيَّةِ، ثُمَّ قَالَ لِنَفْسِهِ — بِصَوْتٍ عَالٍ —: «لَنْ أَتَعَبَ فِي إِعْدَادِ شَيْءٍ لِفَطْوَرِي فِي هَذَا الْمَسَاءِ، فَإِنَّ — فِي بَعْضِ هَذِهِ الْحَشَائِشِ اللَّذِيذَةِ — كِفَايَتِي مِنَ الطَّعَامِ الشَّهِيِّ، وَهِيَ — بِحَمْدِ اللَّهِ — كَثِيرَةٌ فِي هَذِهِ الْحُقُولِ الْوَاسِعَةِ الرَّحْبِيَّةِ.

وَلَكِنْ شَدَّ مَا يَحْزُنُنِي أَنْ أَعْجَزَ عَنِ التَّصَدُّقِ بِشَيْءٍ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالنُّسَاكِ. وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ أَصْنَعُ؟ وَبِأَيِّ عُذْرٍ أَعْتَذِرُ إِذَا سَأَلَنِي سَائِلٌ أَوْ طَلَبَ مِنِّي نَاسِكٌ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ، لِيَتَبَلَّغَا بِهِ، وَلَسْتُ أَمْلِكُ — مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا — شَيْئًا، وَلَنْ تَنْفَعَهُ هَذِهِ الْحَشَائِشُ إِذَا تَصَدَّقْتُ بِهَا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أَمْلِكُهُ سِوَاهَا، فَمَاذَا أَفْعَلُ لِأَبْرَ بَعْدِي، وَأَفِي بِمِثَاقِي؟ لَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا رَجَاءٌ وَاحِدٌ يُمَكِّنُنِي مِنَ الْوَفَاءِ بِقَسَمِي، وَهُوَ أَنْ أَهْبَهُ نَفْسِي، فَقَدْ طَالَمَا سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنْ لَحَمْنَا — مَعْشَرَ الْأَرَانِبِ — مِنْ لَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ عِنْدَهُمْ، وَمَا أَيْسَرَ أَنْ أَضْحِيَ بِنَفْسِي فِي سَبِيلِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى عَهْدِي وَمِثَاقِي».

وَهَكَذَا فَرَحَ «أَبُو نَبْهَانَ» بِهَذَا الْحُلِّ الْجَرِيِّ الَّذِي وُفِّقَ إِلَيْهِ، ثُمَّ سَارَ — فِي طَرِيقِهِ — وَادِعًا مَسْرُورًا، مُسْتَرِيحَ الْقَلْبِ، مُطْمَئِنِّ النَّفْسِ.

(٨) الْمَلِكُ (سَكَا)

وَكَانَ بِالْقُرْبِ مِنْ «أَبِي نَبْهَانَ» — حِينِيذٍ — مَلِكٌ كَرِيمٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، تُسَمِّيهِ الْأُسْطُورَةُ: «سَكَا»، وَتُحَدِّثُنَا الْأُسْطُورَةُ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ كَلِمَاتِ «أَبِي نَبْهَانَ» الَّتِي فَاهَ بِهَا.
وَكَانَ ذَلِكَ الْمَلِكُ جَالِسًا — فِي أَثْنَاءِ السَّكَابِ — مُسَامِتًا لِقِمَّةِ جَبَلٍ قَرِيبٍ مِنْ حَقْلِ «أَبِي نَبْهَانَ».

فَقَالَ «سَكَّا» فِي نَفْسِهِ — مُتَعَجِّبًا —: «أَتَرَى هَذَا الْأَرْزَبَ صَادِقًا فِي هَذَا الْكَلَامِ؟ لَئِنْ صَدَقَ فِي ذَلِكَ، لَيَكُونَنَّ أَعْجَبَ أَرْزَبٍ رَأَيْتُهُ فِي حَيَاتِي، فَإِنِّي أَسْتَكْبِرُ هَذَا النُّبْلَ وَالْكَرَمَ وَالتَّضَحِيَّةَ عَلَى أَرْزَبٍ مِثْلِ أَبِي نَبْهَانَ، وَمَا أَجْدَرَنِي أَنْ أَخْتَبِرَهُ لِأَتَعَرَّفَ مَدَى صِدْقِهِ وَإِيثارِهِ». ثُمَّ صَبَرَ «سَكَّا» عَلَى «أَبِي نَبْهَانَ» حَتَّى اقْتَرَبَ الْمَسَاءُ، فَهَبَطَ الْمَلِكُ مِنَ السَّحَابِ إِلَى الْأَرْضِ، وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ شَكْلَ نَاسِكٍ طَاعِنٍ فِي السَّنِّ، ثُمَّ جَلَسَ فِي طَرِيقِ «أَبِي نَبْهَانَ» وَلَمْ يَكُنْ يَلْقَاهُ وَهُوَ عَائِدٌ إِلَى بَيْتِهِ، حَتَّى ابْتَدَرَهُ الْمَلِكُ قَائِلًا: «عِمَّ مَسَاءٍ يَا أَبَا نَبْهَانَ! أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْدِيَنِي إِلَى زَادِ أَطْعَمُهُ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الصَّغِيرُ — فَقَدْ صُمْتُ نَهَارِي كُلَّهُ، وَاشْتَدَّ بِيَ الْجُوعُ حَتَّى أَعْجَزَنِي عَنِ الصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ، وَقَدْ بَحَثْتُ — جَاهِدًا — عَنْ طَعَامٍ أَكُلُهُ، بَيَاضَ نَهَارِي، فَلَمْ أَظْفَرْ بِطَائِلٍ».

(٩) وَفَاءُ أَبِي نَبْهَانَ

فَذَكَرَ «أَبُو نَبْهَانَ» عَهْدَهُ الَّذِي أَخَذَ نَفْسَهُ بِهِ، وَقَالَ لِلْمَلِكِ — مَسْرُورًا —: «سَعِدَ مَسْأُوكَ — يَا سَيِّدِي النَّاسِكَ الْكَرِيمَ — وَبَعْدُ؛ فَخَبَّرَنِي: أَلَسْتُ — مَعْشَرَ النَّاسِ — تَسْتَطِيعُونَ لَحْمَ الْأَرَانِبِ بَنَاتٍ جِنْسِي؟»

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «لَيْسَ أَحَبَّ إِلَيَّ نَفُوسَنَا مِنْ هَذَا الطَّعَامِ الشَّهِيِّ». فَقَالَ «أَبُو نَبْهَانَ»: «فَأَمَّا إِذَا اسْتَطَبْتُ لَحْمِي، وَاشْتَهَيْتُهُ نَفْسُكَ؛ فَإِنِّي أَضْعُ نَفْسِي رَهْنَ إِشَارَتِكَ؛ لِتَذْبَحَنِي، وَتَسْلَخَ جُلْدِي، ثُمَّ تَأْكُلَ لَحْمِي طَعَامًا سَائِغًا هَنِئًا، فَهُوَ — فِيمَا أَعْلَمُ وَفِيمَا تَقُولُ — طَعَامٌ فَاجِرٌ لِمِثْلِكَ، وَلَسْتُ أُمْلِكُ مَا أَقْدِمُهُ إِلَيْكَ غَيْرَ هَذَا». فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ «سَكَّا»: «وَلَكِنِّي رَجُلٌ نَاسِكٌ، لَمْ أَتَعَوَّدْ ذَبْحَ أَيِّ حَيَوَانٍ طُولَ حَيَاتِي، فَكَيْفَ أَخَالَفُ عَادَتِي؟ وَهَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الصَّيَامِ كَمَا تَعْلَمُ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ أُقْدِمَ عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ الْكَرِيمِ».

فَقَالَ «أَبُو نَبْهَانَ»: «لَا عَلَيْكَ — يَا سَيِّدِي — فَإِنَّ الْأَمْرَ أَيْسَرُ مِمَّا تَظُنُّ؛ فَاجْمَعْ شَيْئًا مِنَ الْحَطَبِ، وَأَوْقِدْ فِيهِ النَّارَ، ثُمَّ لَا تَفْعَلْ شَيْئًا بَعْدَ هَذَا، فَإِنِّي قَازِفٌ بِنَفْسِي فِي اللَّهَبِ، حَتَّى يَنْضَجَ لَحْمِي وَيَنْشَوِي، فَتَأْكُلُهُ سَائِغًا هَنِئًا. فَمَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ؟»

(١٠) فِي اللَّهَبِ

فَعَجِبَ «سَكَّا» حِينَ سَمِعَ مِنَ الْأَرْزَبِ مَا سَمِعَ، وَأَكْبَرَهُ أَيَّمَا إِكْبَارٍ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا يَقْتَنِعُ بِصَدْقِهِ فِي كُلِّ مَا قَالَ؛ فَاعْتَرَمَ أَنْ يَبْلُوهُ وَيَخْتَبِرَ مَدَى صِدْقِهِ فِي قَوْلِهِ، لِيَتَبَيَّنَ الْحَقِيقَةُ كَامِلَةً؛ فَخَلَّلَ «سَكَّا» إِلَى الْأَرْزَبِ أَنَّهُ أَضْرَمَ نَارًا مُتَأَجِّجَةً تُوهِمُ رَائِيهَا أَنَّهَا نَارٌ حَقٌّ نَارٌ. فَلَمْ يَتَرَدَّدْ «أَبُو نَبْهَانَ» فِي إِنْجَارِ وَعْدِهِ، وَقَذَفَ بِنَفْسِهِ فِي اللَّهَبِ مِنْ فَوْرِهِ. وَلَبِثَ «أَبُو نَبْهَانَ» فِي اللَّهَبِ بَضْعَ دَقَائِقٍ دُونَ أَنْ يَحْتَرِقَ، فَصَاحَ بِالنَّاسِكِ مُتَعَجِّبًا — مَدْهُوشًا —: «مَا بَالُ هَذِهِ النَّارِ الْعَجِيبَةِ لَمْ تُحْرِقْنِي، وَلَمْ تَمْسَسْنِي بِأَقْلٍ سَوْءٍ؟ وَمَا لِي أَرَاهَا تَشْتَعِلُ — مِنْ حَوْلِي — دُونَ أَنْ تُلْحِقَ بِي أَيُّ أَدَى؟ مَا أَعْجَبَ مَا أَرَى — أَيُّهَا النَّاسِكُ الْكَرِيمُ — فَإِنَّ هَذِهِ النَّارَ الْمُلتَهَبَةَ الْمُتَأَجِّجَةَ لَمْ تُحْرِقْ مِنْ جِسْمِي شَعْرَةً وَاحِدَةً! يَا لِلْعَجَبِ! حَتَّى شَعَرَاتِ شَارِبِي الطَّوِيلَةِ لَمْ تَمْسَسْهَا النَّارُ بِسَوْءٍ!»

(١١) إِطْفَاءُ اللَّهَبِ

وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو نَبْهَانَ» يُبَيِّنُ كَلَامَهُ حَتَّى انْطَفَأَتِ النَّارُ، وَنَظَرَ «أَبُو نَبْهَانَ» حَوْلَهُ، فَلَمْ يَرَ نَارًا وَلَا لَهَبًا، وَلَا رَمَادًا؛ بَلْ رَأَى نَفْسَهُ عَلَى الْحَشَائِشِ النَّدِيَّةِ النَّاعِمَةِ، ثُمَّ تَعَاظَمَتِ الدَّهْشَةُ وَتَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ، حِينَ تَحَوَّلَ النَّاسِكُ الشَّيْخُ إِلَى شَكْلِهِ الْأَوَّلِ، وَعَادَ — كَمَا كَانَ — مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ.

وَالْتَفَتَ «سَكَّا» إِلَى «أَبِي نَبْهَانَ» قَائِلًا: «لَسْتُ كَمَا ظَنَنْتَنِي — يَا أَبَا نَبْهَانَ — شَيْخًا نَاسِكًا، بَلْ أَنَا مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أُسَمَّى: «سَكَّا»، وَقَدْ سَمِعْتُ قَسَمَكَ الَّذِي أَقْسَمْتَهُ، وَعَهْدَكَ الَّذِي أَخَذْتَ نَفْسَكَ بِهِ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَبْلُوكَ وَأَخْبِرَ نَفْسَكَ، لِأَتَعَرَّفَ مَبْلَغَ قَوْلِكَ مِنَ الصِّدْقِ، فَوَجَدْتُ مِنْ ثَبَاتِكَ وَإِصْرَارِكَ عَلَى عَهْدِكَ، مَا مَلَائِي إِعْجَابًا، وَرَأَيْتُ مِنْ إِثَارِكَ وَتَقْدِيرِكَ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُخْطَرُ لِي عَلَى بَالٍ. وَقَدْ اعْتَرَمْتُ أَنْ أَكْفَيْتَكَ — عَلَى ذَلِكَ — مُكَافَأَةً عَظِيمَةً لَمْ تَخْطُرْ لَكَ عَلَى قَلْبٍ. تَأَمَّلْ — يَا أَبَا نَبْهَانَ — فَإِنِّي مُحَقِّقٌ لَكَ وَعْدِي، وَمُغْلِبُكَ أُمْنِيَّتَكَ عَلَى الْفَوْرِ».

(١٢) فِي صَفْحَةِ الْقَمَرِ

ثُمَّ رَفَعَ «سَكَّا» يَدَهُ فِي الْهَوَاءِ، وَأَشَارَ بِهَا — صَوْبَ الْجَبَلِ — وَلَقَفَ مِنْهُ شَيْئًا مِنَ الْعَصِيرِ، ثُمَّ سَكَبَهُ فِي جِسْمِ «أَبِي نَبْهَانَ» فَسَرَى فِي عُرْوَقِهِ مَسْرَى الدَّمِ، ثُمَّ أَمْسَكَ «سَكَّا» بِالْأَرْزَبِ الْوَفِيِّ الصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَقَذَفَ بِهِ فِي الْهَوَاءِ — صَوْبَ الْقَمَرِ — فَارْتَفَعَ «أَبُو نَبْهَانَ» مُرْتَقِيًا فِي أَجْوَاзِ الْفُضَاءِ، حَتَّى حَلَّ بِالْقَمَرِ، وَالتَّصَقَّ جِلْدُهُ الْأَبْيَضُ النَّقِيُّ بِأَدِيمِهِ، وَانْطَبَعَ جِلْدُهُ عَلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ الْفُضِيَّةِ اللَّامِعَةِ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «سَكَّا» حَدِيثَهُ قَائِلًا: «سَتَنْظِلُ — أَيُّهَا الْأَرْزَبُ الصَّغِيرُ — مُطْلًا مِنْ عَلَيَّاكَ عَلَى الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، وَسَتَعِيشُ — إِلَى الْأَبَدِ — لِتُذَكِّرَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِالصَّدْقِ وَالْوَفَاءِ، وَتُنْقِذَهُمْ بِصَدْقِ الْحِكْمَةِ الْقُدْسِيَّةِ الْبَاقِيَةِ»: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا».

(١٣) خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

فَابْتَهَجَ «أَبُو نَبْهَانَ» بِهَذِهِ الْمُكَافَأَةِ الْجَلِيلَةِ، وَرَفَعَ أُنْذُنَيْهِ أَمَامَ صَفْحَةِ الْقَمَرِ الْفُضِيَّةِ اللَّامِعَةِ، وَالتَفَتَ إِلَى «سَكَّا» لِيَشْكُرَ لَهُ صَنِيعَهُ الَّذِي أَسَدَّاهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَرِ أَمَامَهُ أَحَدًا، فَقَدْ أَسْرَعَ الْمَلِكُ إِلَى مَكَانِهِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّحَابِ، بَعْدَ أَنْ أَجْزَلَ مُكَافَأَةً «أَبِي نَبْهَانَ»، وَهَيَّأَ لَهُ — فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْعَالِيِّ — كُلَّ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ مِنَ الْحَشَائِشِ النَّدِيَّةِ الرَّطْبَةِ وَالْمَاءِ الْعَذْبِ. وَلَا زَالَ «أَبُو نَبْهَانَ» — إِلَى يَوْمِنَا هَذَا — يَأْكُلُ مَا شَاءَ مِنَ الْحَشَائِشِ، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى مَاوَاهُ عَلَى صَفْحَةِ الْقَمَرِ — لَيْلًا — لِيَنَامَ مَلءَ جَفْنَيْهِ، وَقَدْ امْتَلَأَ بَطْنُهُ طَعَامًا وَمَاءً، وَامْتَلَأَتْ نَفْسُهُ بِهَجَّةٍ وَانْشِرَاحًا.

